ابعاد جديدة
في تأويل احاديث متشابهة

يرى «النورسي» رحمه الله تعالى؛ ان الحديث الشريف ليس سواء من حيث فهمنا وادراكنا لمراميه وأبعاد مقاصده، فمنه «المحكم» الذي قلما يُختلَف في فهم غرضه ومعناه، ومنه «المتشابه» الذي تتعدد وجهات النظر فيه، وتختلف العقول في ادراك أغراضه ومقاصده، وتتباين الأذهان في تأويله والاستنباط منه.

وكما أنه لا يجوز الوقوف عند حرفية «الآي المتشابهة» من القرآن الكريم، والتعامل مع ظاهر معناه من دون الأخذ بنظر الاعتبار دلالاته البلاغية من استعارة وكناية ومجاز، الى غير ذلك من أصول «العربية» وأساليب بيانها، كذلك لا يجوز الوقوف عند ظاهر «الحديث المتشابه» والتعامل مع استعاراته ومجازاته وكأنها حقائق مقصودة لذاتها والنظر الى «المثال» و «الرمز» الذي يتضمنه الحديث وكأنه هو غاية الحديث وهدفه.

ان النظر الى «الحديث المتشابه» هذه النظرة الضيقة، والوقوف عند معناه الظاهري الحرفي، أوقع عامة المسلمين في خطأ فادح، جرّهم الى تصورات خيالية لبعض هذه الأحاديث قد تبدو أحياناً وكأنها مجانبة للعقل والمنطق.

فعبقرية التجسيم والتصوير والتشخيص للمعاني، هي بعض خصائص اللغة العربية، فمهما أغرقت في حسيتها، واستعارت من هذه الحسيات،

ومهما أوغلت في مجازاتها، فلا ينبغي ان ننسى أنها مجرد وسيلة يستخدمها «الحديث» لتجسيم المعاني وتقريبها لأحاسيسنا وأفكارنا، بينما الوقوف عند صورة الحديث ومجسماته دون التوغل الى روحه ومعناه – عبر مجازاته واستعاراته – قصور معيب انعكس بسلبياته - وما زال ينعكس – على فهوم عامة المسلمين للأحاديث الشريفة المتشابهة، ولاسيما تلك الأحاديث المروية في «الدجال» وحاله ووصفه وزمانه وفعاله.

وقد خلص «النورسي» من دراسته لمجمل الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ في «الدجال»، الى ان «الدجال» ليس واحداً، وان هناك «دجالين» صغاراً يأتون تباعاً الواحد تلو الآخر قبل ان يحل زمان «الدجال الأكبر».

وهو يرى - اي النورسي - ان لكل عصر دجاله الذي يرتدي ثوب عصره، ويتسربل بسربال زمانه، ويتلون بلون وقته.

و «الدجال» انسان متميز بقدرات وطاقات تهيئ له فرصة التسلط على الغالبية العظمى من الناس، وهو قادر على اخفاء وجهة القبيح، ونواياه الشريرة وكفره وجحوده، تحت أغطية متعددة من الدعوة الى الحق والخير والعدل.

وهو كذلك يتفنن في استخدام وسائل الدعوة المتاحة الى نفسه حتى يستهوي جموعاً عظيمة من الناس، تؤمن به، وتتبعه وتتسابق الى تنفيذ أوامره، وتحقيق رغباته، وهو لا ينفك يستعرض أمام هذه الجموع المفتونة أفانين من قدراته التي تبدو لبسطاء الناس وكأنها خوارق تعزز صدقه، وتدعم دعواه.

ثم يمضي «الدجال» في الاستيلاء والتسلط خطوة بعد خطوة، ويتسع نفوذه، وتمتد هيمنته، ويبدأ «الأنا» في نفسه يتضخم ويكبر ويتورم، فيحفز عرق الربوبية الموهومة في نفسه، والألوهية المتخيلة فاذا به يصرخ - بكل اللغات وبكل الوسائل - من لاعج هذا الوهم القاتل بلسان الحال أو المقال كما صرح فرعون: (أنا ربكم الأعلى)، فيرى من حقه، وقد بلغ به توهم الربوبية هذا المبلغ المخيف، استعباد الناس وتسخيرهم لشهواته ومآربه.

وتاريخ الانسانية ملئ بنماذج من هؤلاء الدجالين على اختلاف الأزمان والأوطان.

و «النورسي» يعتمد على أثر مهم في التفريق بين «دجال المسلمين» الذي يسميه «الأثر» بـ «السفياني» وبين «دجال البشرية قاطبة». ويرى ان مهمة هذا الدجال، هي نشر الفساد والاباحية، وتحطيم الخلق والفضيلة، ومسخ الانسانية والعدالة، وتزيين الظلم والطغيان، الى آخر ما هناك من عوامل هدم الحضارات وتدمير الانسانيات.

واما «السفياني» دجال المسلمين، فان مهمته هي قيادة المسلمين تدريجياً نحو البعد عن الاسلام، والتنكر لعقيدته وشريعته، ثم حمل المسلمين على الافتتان بشخصه الى حد الرضى به مشرعاً يشرع لهم من الشرائع ما تهوى نفسه، ويرضاه عقله، فينصب من نفسه نداً للألوهية والربوبية صاحبة الحكم والتشريع الحقيقيين.

و «النورسي» بعد ذلك، يستعرض في رسالة - الشعاع الخامس - «اشراط الساعة» جملة من المسائل الواردة في «الدجال» وفي «المهدي» وفي «يأجوج ومأجوج» و «دابة الأرض» وغيرها من غيبيات الحديث

ومتشابهه، ويحاول ـ ضمن منهجه في اسلوب فهم الحديث المتشابه ـ تأويل هذه الآثار وتفسيرها دون تعسف أو تمحل، ودون أن يحمل الأثر من المعاني ما لا يحتمله، أو ما هو يبعد عن المضمون الذي يتضمنه الحديث. بل هو، يقبله ويتسع له، ولا يوجد ما يمنع قبوله والاتساع له شرعاً.

ولا يخفى ان «الحديث المتشابه» ـ اذا صح ـ شأنه شأن «الآي المتشابهة»، به يختبر ايمان المؤمنين، وصدق المصدقين، وبه يكتشف الماس الايمان النفيس من فحم الشك والتردد الخسيس، كما يشير الى ذلك «النورسي» في ثنايا الرسالة.

* * *